سلطة العادات والتقاليد في رواية الزيني بركات لجمال الغيطاني

The authority of customs and traditions in the novel by Al-Zayni Barakat by Jamal Al-Ghitani

آمنة عبدالهادي محمدأمين
د. سالم نجم عبدالله
أستاذ
جامعة الموصل- كلية التربية الأساسية – قسم اللغة العربية

Amina Abdul-Hadi Mohammad Amin
Dr. Salem Najim Abdullah
professor
University of Mosul- College of Basic Education - Department of Arabic Language

a.a.alhabbar@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٢/٨/٢٤
تاريخ القبول ٢٠٢٢/٩/٢٧

الكلمات المفتاحية: العادات، السلوك، الخوف، المتسلط

Keywords: Habits, behaviour , fear , authoritarian

الملخص

للعادات والتقاليد اهمية كبيرة في تحديد هوية المجتمع وتملك قدسية كبيرة لدى الأفراد فهي ترتبط بذاكرة الافراد وتعطي أهمية كبيرة للتاريخ فهي نابعة اساساً منه من ماضٍ ابتكره الاجداد من اجل الحفاظ على ذلك التاريخ، فهي تعطي جمالية واصالة وتحافظ على التراث، واستطاع جمال الغيطاني بما يمتلك من قدرة ادبية ولغوية كبيرة من توظيف هذه العادات في رواية (الزيني بركات) واستفاد منها كثيراً وجعلها طوع لغته واسلوبه المتميز، إذ كانت العادات والتقاليد بارزة في نصه الروائي لتوضح جماليات العصر الذي نقلته الرواية وكيفية استخدام السلطة لتلك العادات الراسخة في المجتمع لصالحها ومحاولة السيطرة عليها وتغير مما هو ضد مصالحها ويتعارض مع قوانينها الصارمة المفروضة على الأفراد بالقوة .

Abstract

The customs and traditions are of great significance in defining the identity of society and have also great sanctity for individuals. They are closely related to the memory of individuals and gives great importance to history, as it stems mainly from a past invented by grandparents in order to preserve that history. They give aesthetics and originality and preservs the heritage, and Jamal Al-Ghitani, with his great literary and linguistic ability, was able to employ these customs in the novel (Al-Zayni Barakat). He benefited greatly from it and made it tamper with his distinguished language and style. The customs and traditions have been prominent in his novelist text to point out the aesthetics of the period that the novel conveyed and how the power of those well-established customs in society were used to their advantage. There has been an attempt to control them and change what is against the interests and contradict their strict laws imposed on individuals by force.

مدخل

تمارس العادات والتقاليد دوراً سلطوياً بالغاً في تشكيل الواقع الاجتماعي، بل تصل في بعض المجتمعات إلى أن تكون نوعاً من القوانين غير المكتوبة التي تسيّر عليها الحياة هذه المجتمعات إذ تعد"الدعائم الاولى التي يقوم عليها التراث الثقافي في كل بينة اجتماعية"(١)

بينما نجد أن في الكتابة السردية لا يستطيع الكاتب الابتعاد عن هذه العادات التقاليد إذ نجد النص السردي حافل "بالكلمات المنظومة او المأثورة وتدخل فيه المعتقدات والعادات والتقاليد والمراسيم والممارسات الشعبية"(٢).

ويتحدث عالم الفلكلور (ريتشارد ديفايس) عن العادات والتقاليد فيقول: "هناك بعض صور التعبير البسيطة او وسائل العرض التي تتكرر دائما كعناصر عادة احتفالية ابتداء من أقدم طقوس الإخصاب او تقديس الموتى حتى احدث عادات الأعياد التي تعرفها، فالممارسات السحرية الريفية القديمة والاحتفالات الحالية في المدن والمواكب الدينية والاجتماعات تستخدم الأشكال نفسها وعناصر العادات نفسها، أما الفارق الوحيد في ذلك فهو المستوى الثقافي التي تظهر فيه العادة والمناسبة التي تستخدم فيها"(٣).

فالعادات هي بمثابة هوية للفرد والمجتمع فهي والتقاليد تشكل بصورة محددة الهوية الثقافية لأي مجتمع بإعتبارها حصيلة التطور التاريخي والحضاري للأفراد و الجماعات حيث أنها تمثل "مجموعة الأنماط السلوكية التي تحتفظ بها الجماعة وتترسمها تقليديا (by tradition) وهذا ما يميزها عن النشاط الشخصية التي يقوم بها الفرد "(٤).

وبذلك تكون ذات " ركنين أساسيين ، ركن معنوي نفسي فكري باطن هو القيمة، وركن مادي عملي ملموس هو السلوك الشكلي الظاهري المعبر عن القيمة، وبناءً على هذا يمكننا

---

(١) القيم والعادات الاجتماعية: فوزية دياب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠ :١٠٧.

(٢) معجم المصطلحات في اللغة والأدب: كامل المهندس ومجدي وهبة :٣٢٢.

(٣) علم الفولكلور (الأسس النظرية والمنهجية):محمد الجوهري ،دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨١: ١٢٢/١.

(٤) القيم والعادات الاجتماعية، فوزية دياب: ١٠٦.

أن نخلص إلى أن القيم هي نفسية العادات ومضمونها"[١]، إذ تعد أداة تحافظ على النظام الاجتماعي والاستقرار بالمجتمع "فالقيم تساعد الناس على التمسك بالعادات وتضفي عليها معنى وتبين الفكرة او الحكمة منها ومن ثم تعطي المبرر للتمسك بها ولان المبدع يرتبط مباشرة بالحياة بكل ظروفها وقيمها وعاداتها وتقاليدها[٢].

فهي عبارة عن مجموعه من الطقوس التي يتوراثها الأجيال عبر الزمان لتكون جزءاً مهماً من عقيدتهم لتصبح فيما بعد "الدستور غير المدون الذي لايقل شأنا في حياة المجتمع عن الدستور المكتوب وهي فوق ذلك المعين الاول الذي تستقى منه التشريعات والقوانين الوضعية مادتها وأصولها الاولى"[٣].

تدل العادات والتقاليد على الأفعال الزمنية القديمة التي مارسها الناس عبر العصور الماضية، وامتدت إلى الزمن الحاضر حيث يتم تناقلها الخلف جيلاً بعد جيل فهي" عادات مقتبسة اقتباساً راسياً أي من الماضي إلى الحاضر،ثم من الحاضر إلى المستقبل ،فهي تنقل وتورث من جيل إلى جيل، ومن السلف إلى الخلف على مر الأزمان"[٤].

وللعادات والتقاليد أثر كبير في توجيه المجتمع إذ تعد سلطتها اكبر من سلطة الدولة لان سلطة الدولة تتغير اما سلطة العادات والتقاليد فهي راسخة وثابتة منذ القدم باعتبارها"مجموع ما يتلقاه الفرد من مجتمعه من المعتقدات والتقاليد والمعاير الفنية، وأشكال الحرف التقليدية التي لاتتأتى لهذا الفرد من نشاطه الخلاق وإنما من موروث الماضي المتناقل بكيفية واضحة او مضمرة"[٥].

---

(١) القيم والعادات الاجتماعية، فوزية دياب: ٣٣٩.

(٢) توظيف التراث في خطاب عمر الطالب القصصي: رسالة ماجستير: الهام عبدالوهاب عبدالقادر، اشراف الدكتورة فاطمة عيسى جاسم، جامعة الموصل، كلية التربية، ٢٠٠٨: ٩٤.

(٣) السلطة في المجتمع: عبد العزيز عزت، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٠: ٥٩.

(٤) علم الاجتماع القانوني: حسن الساعاتي، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٠: ١٠٧.

(٥) تاريخ الاثنولوجيا من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية: روبرت لوي، ت: نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٢ : ٥.

وتظهر العادات والتقاليد بصورة كبيرة في ممارسات الشخصيات وافعالهم داخل النص الروائي وقد استخدمها الكاتب استخداماً كبيراً واستفاد منها في إثراء نصه الروائي بإعتبارها الهوية الثقافية والحضارية للعصر وما تحمل في طياتها من احترام وتقديس تشعرك انها وثيقة ثمينة لايمكن تجاوزها

" **ألقى البعض صدفة ، أفتح ذراعي على عادة أهل البلاد، أقبل كتفه ويقبل كتفي، أتراجع لأتأمله، أعود لاحتضنه من جديد، اذكر أنه لم يتغير إن كان متقدماً في السن، أن الصحة تطل من عينيه، يغمغم بحمد الله ويشكره، يحلف أيماناً مغلظة ليصحبني إلى داره فأمضي، نجلس في غرفة الضيافة، تفتح نوافذها المزخرفة على حديقة صغيرة بها ريحان وفل، تتوسطها نافورة صغيرة أرضيتها مرصعة بالرخام الملون الجميل، لا تطلق النافورة مياهها إلا عند مجيء ضيف**"(١).

من العادات والتقاليد المتعارف عليها في المجتمعات العربية . الترحيب الحار بالضيوف المشحون بالتقبيل والأحضان . دلالة على أهمية الشخص و كثرة محبته ومعزته عند الناس ونجد ذلك واضحاً وجليا في المجتمع المصري الذي يبينه الراوي من خلال سرده لحادثة اللقاء بين الرحالة البندقي الذي يصف حال البلاد ولقائه المتكرر مع الناس من خلال زيارته العديدة فيبدو ان الترحيب والاستقبال لا يختص فقط مع ابناء البلاد مع بعضهم البعض بل يكون مع الغرباء من غير البلدان إذ يبقى للضيف مكانته المميزة إذ لاتطلق النافورة مياهها الا عند مجيء الضيف دلالة على الترحيب واهمية القادم.

" **الزيني يراه أهل القاهرة يومياً ، ولو مرة واحدة، تدق الطبلخاناه أمامه، يمشي السعاة في ركابه، الزيني دائم التفتيش على أسعار البضائع، يتعقب اوكار الفساد، مشي الناس في الطرقات ، له قواعد لا بد من مراعاتها، الالتزام بها، أحياناً يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات لتزايد عبث المماليك في بعض الفترات**"(٢).

يأتي الزيني بركات بعادة جديدة لم يكن يفعلها سابقوه ممن تولوا منصب محتسب الديار المصرية، إذ ان الامتزاج مع الناس ورؤيتهم المتكررة له يوميا لم تكن موجودة عند الحكام

(١) الزيني بركات: ٨.

(٢) المصدر نفسه: ٩.

السابقين الذين اتخذوا من قصورهم حصنا منيعا عن الناس ومعرفة احوالهم واوضاعهم وما يجري لهم على عكس الزيني الذي كان قريبا منهم دائم التفتيش وراء التجار وربما كان هذا الجانب الايجابي الذي يراه الناس ويبقى الجانب الخفي الذي يضمره في نفسه وغائب عن عامة الناس وربما حاول الزيني بتقربه هذا تجنب الاخطاء التي وقع بها سابقوه إذ سيكون دائم الاطلاع على كل ما يجري في البلاد وعلى مرأى من عيونه ولا يكتفي بما ينقل له من الاخبار عن طريق البصاصين.

" **يجيء المريدون في الصباح، يقراون القرآن والأحاديث، بعضهم ينظف أركان البيت يقدم إلى الشيخ غذاءه من اللبن الرائب والخبز الساخن الطري ، أقصى آمالهم كلمة من الشيخ إلى واحد منهم فيها رضا، سعيد لا يتحرج أمام مولاه من إبداء ضيق او غضب، ما يخشى التصريح او التلميح به بين الجموع في الأسواق او أروقة الأزهر، يقوله هنا**"(١).

من العادات التي كانت سائدة قديما في المجتمعات العربية التعلم على يد الشيوخ في المساجد والجوامع والحلقات العلمية وكانوا الطلاب يقدمون المساعدة لشيخهم لينالوا رضاه واستحسانه ويتسارعون في خدمته فلم تكن المدارس موجودة في ذلك الوقت ويقتصر التعليم على يد المشايخ المعروفين بالعلم والحكمة.

" **جاء صبي المعلم الصفدي يحمل صينية مثقلة بأكواب الحروب ، يمسك عمرو كوز الفخار بأصابعه، تتسرب رائحة المشروب إلى برودة الهواء، من عادات الصفدي شرب التمر هندي، والخروب والليمون في قرارة أيام الشتاء، يقول : هذا يفتح دروب القلب، يشرح الصدر، شفتا عمر و تتمتان بأدعية قبيل شربه، تظل نظراته فوق الوجوه لحظات، تتراجع بسرعة منطوية تحت جفنيه المسدلين، لا يتكلم كثيراً إنما يصغي ، مع أمثالهم لا يخشى هفوة تشي به، كل آرائهم تجيء على ألسنتهم بدون حرج، لا يضطر إلى إلقاء جملة تبدو عارضة، مستترة، الغرض منها توجيه الحديث في طريق بعينه، برودة الخروب تنفذ إلى أطراف جسمه، مر النهار صعباً، ليلة أمس لم ينم الخلق، الدكاكين لم تغلق لحظة ، أصحابها يجلسون أمامها، الأمراء أغلقوا بيوتهم، دقوا الطبلخناة وقتاً أطول من المعتاد بعد**

(١) الزيني بركات: ٤٤.

العشاء حتى ارتجت المدينة"[١].

اجتماع الناس في المقاهي والحديث بينهم وتبادل الاخبار ومناقشة كل مايجري في البلاد من تقلبات الاوضاع من الامور الشائعة والمعروفة لدى المجتمعات خاصة عند حدوث أمر عظيم يجلسون ينتظرون ويترقبون ما سيحدث، فضلاً عن شربهم انواع معينة من المشروبات ولكل موسم من مواسم شراب خاص، اما تلاوة الادعية قبل شرب اي شيء فهي عادة قديمة وما زالت موجودة إلى يومنا هذا فهي تدفع الراحة والاطمئنان إلى النفس بنية الشفاء من الامراض.

" **زكريا يعرف الأحداث والتواريخ القريبة، والبعيدة لم يتحدث محتسب في جمع من الناس أبداً، بل لم يسبقه أي أمير، كبيراً او صغيراً في هذه الفعلة، تحدث العظيم إلى العامة مباشرة يفقده هيبته ، يضيع مهابة الحكم والحكام، يتطاول العامة على الكبار، إذا كان ناظر الحسبة يتكلم إليهم، لماذا لا يفعل مثله الأمراء؟؟ الم ينبه أحد إلى هذا؟؟"**[٢]

كان سابقا معروف لدى الحكام واصحاب السلطة ان يكونوا بعيدين عن عامة الناس منشغلين في انفسهم وكيفية جمع المال واقامة الحواجز بينهم وبين الناس فلا توجد العلاقات والصلات بينهم وذلك من اجل الحفاظ على هيبتهم في نفوس الامة ايضاً ، ولكن يبدو ان هذه العادة بدأت تزول على يد الزيني بركات إذ اصبح دائم التقرب من الناس والسير بينهم واقامة الخطب وجمهرته محوله فضلاً عن فتحه ابواب منزله امام العامة ليشكو له كل من له مظلمة ويبدو ان هذه العادة اصبحت تثير القلق لدى زكريا وذلك لمخالفتها العادات السابقة وربما استطاع الزيني من خلال هذا التجمهر ان يبث للناس افكاره التي قد لاتتماشى مع مصالح زكريا والسلطان .

" **تفيد التقارير أن العامة بدأت عيونهم تتفتح على الأمراء، كل منهم يقول لماذا لا ينزلون او يخطبون فينا، هل هم أقل شأناً من الرجل الطيب الزيني بركات؟؟"**[٣].

هذا التقرب الذي ظهر من الزيني جعل الناس يتكلمون وينتقدون الامراء لبعدهم عن عامة الناس واتخاذهم من قصورهم اماكن منعزلة عنهم وجعلهم يظنون الظنون في الامراء

---

(١) الزيني بركات: ٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ٧٠.

بتكبرهم واستعلائهم عليهم مما جعلهم يتقربون ويمجدون الزيني اكثر فأكثر.

"**بجوار عمود الرخام الثالث من يمين الجدار القديم في الأزهر، يقول الأزهريون أن ثمة طلساً مدفوناً تحته يمنع العصافير والثعابين والعقارب من الجامع** "(١).

الطلاسم موجودة في تراث الكثير من الشعوب وتشكل جزءاً كبيرا من عاداتهم إذ تتمثل باعتقادهم انه بإمكان الطلسم ان يدفع الضرر ويجلب الحظ والخير والذي قد يكون على شكل خطوط وكتابات غير واضحة المعنى تكتب على ورق او حجر تدفن في الارض او تعلق في مكان ما، ذلك ما دفع الناس إلى الاعتقاد بوجود طلسم مدفون في جامع الازهر يمنع الحيوانات من الدخول إلى الجامع وتدنيس حرمته وطهارته.

" **ها هو النهار يولي، لحظات نزول الليل يحلو الكلام، تكثر الفضفضة، أمام دكاكين باعة الحلوى، الترزية، في زاوية سيدي الحلوجي جماعة من قصر الشوق يسهرون بعد صلاة العشاء، يفسرون الآيات، الأحلام التي طالعتهم في المنام ، لا ينفذ غريب إليهم، لكن مجيء عمرو المتكرر إلى الزاوية، أداؤه الصلاة، تأدبه عند اصغائه إليهم، طول صمته، هزة رأسه لا تنقطع بالموافقة على ما يقولونه من آراء، يطالعهم بمظهر تلميذ يحرص على الاستفادة من رجال خبروا الحياة، الموا بالعلوم، الأيام قربته منهم، لو تغيب ليلة يسألون عنه، المقدم يثني عليه دائما، يشيد به لنجاحه في النفاذ إلى هؤلاء**"(٢).

الجلوس امام الدكاكين وتجمع عدد من الرجال في دكان احدهم من العادات الشائعة والمعروفة فعند الانتهاء من اعمالهم وحلول المساء يبداون بالتجمع ليتبادلوا اطراف الحديث ويتسامروا وغالباً ما تكون مواضيعهم حول السلطة وما يجري في البلاد من احوال وما يحدث لكل منهم من ظلم وما يعانيه من المصائب التي وقعت عليه لذلك يكثر وجود البصاصين في هذه التجمعات فنجد(عمرو بن العدوي) من البصاصين الاشداء المتقنين مهنتهم كثيراً استطاع من الدخول وغرس نفسه في مجالسهم بمهارة عالية فهو يسمع ويحفظ وينقل كل ما يراه لنائب زكريا ليحضى بالرضا والقبول.

---

(١) الزيني بركات: ٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦.

" **لدى الشيخ أبو السعود خاتم عليه رسم سيدنا سلميان، يمكنه فك طلاسم الجان وتسخيرهم لأغراض الإنسان، يمكن للشيخ أن يحمل زكريا بن راضي إلى جبال واق الواق، لا يرجع أبداً، لو شرع في العودة فسيقطع المسافة في ألف ألف سنة، سعيد لم يقل هذا للشيخ ، يعرف غضبه وهياجه إذ تنسب إليه الخوارق**"(١).

من الامور المتعارف عليها في المجتمعات العربية ان ينسب الناس البسطاء الامور الخارقة للطبيعة للشيوخ واضافة هالة من القدسية والمعرفة بكل ما هو ظاهر وخفي عن الناس وذلك لما يحدثوه من تأثير في نفوس العامة وقدرتهم على تسيير الناس كيفما يشاؤون ولكن يبدو ان الشيخ ابو السعود يكره هذه الصفات وان ينسب اليه الناس الخوارق فهو عالم وعارف بأمور الدنيا لا يتمتع بالخوارق ولو كان كذلك لاستطاع ان يخلص الناس من شر زكريا ولكن يبقى الصراع بين الخير والشر قائم وازلي.

" **بعد الاطلاع على رأي الشريعة**
واستشارة أهالي الرأي والمشورة
والبحث فيها مضى وانقضى
يأمر الزيني بركات بن موسى
متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي
بإبطال عادة نعي الموتى بدق الطارات
ومن ضبطت تدق طاراً على ميت
تشهر بغير معاودة . ."(٢).

نعي الموتى من العادات المعروفة من الجاهلية إذ كانوا ينعون موتاهم بذكر محاسنهم والتفاخر بها واستمرت هذه العادة في المجتمع العربي ويبدو ان الزيني حاول من خلال سلطته فهو محتسب القاهرة وهذه السلطة تجمع بين الدين والسياسة حاول ان يغير هذه العادة، وامتدت سلطته وجبروته حتى على العادات القديمة الراسخة في المجتمع منذ القدم والمخالف ينال عقابه.

---

(١) الزيني بركات: ٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٢.

" من الآن فصاعداً
ستعلق فوانيس كبيرة تضيء بالشحم
هندسها وسواها
الأمير طغلق شادي العمائر
بعد استماعه إلى رأي الزيني بركات
متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي
على كل باب حارة
تحت كل منزل وقصر
أمام كافة الوكالات
متعلق الفوانيس الجديدة
وسيقوم رجال الزيني بإضاءتها كل ليلة وبمعرفتهم
حتى تنام القاهرة آمنة
وحذار أن ينزع مصباح من مكانه
والا جوزي وعوقب أصحاب المكان
يا أهالي مصر.
لن يكلفكم الأمر درهماً
فتعاونوا مع ناظر الحسبة الشريفة"[١].

يستمر الزيني في محاولاته بفرض سيطرته وتغير العادات المجتمعية السائدة إذ يفرض على كل بيت ان يعلق الفوانيس فوق بابه ويتولى هو وجنوده هذه المهمة ليضيء الطرقات وهوماكن غير معروف وسائد عندهم ولم يفكر به سابقوه الامر الذي جعل الناس ينقسمون بين مؤيد ورافض فهم يرون ان الفوانيس تسمح للزيني بالتلصص على الناس داخل بيوتهم وتسمح للنساء بالتجول ليلا والخروج من منازلهم بعد ان كان ذلك غير موجود ومعروف عندهم والمؤيدين يرون انه بتعليق الفوانيس وانارة القاهرة لن يستطيع جنود المماليك من الهجوم ليلاً وبذلك تكون حادثة الفوانيس احدثت ضجة كبيرة بالقاهرة الامر الذي ادى إلى ان يصدر السلطان مرسوم رسمي بإلغائها.

---

(١) الزيني بركات: ١٠٣.

" **رأيت المدينة تغلي . من النادر جداً تواجد الأهالي خاصة النساء بعد العشاء في طرقات المدن الشرقية خاصة القاهرة التي يشرف على نظامها رجل قوي، متمسك بالدين وفروضه، له هيبة عظيمة عند الناس، وهو محور هذا الغليان، أقصد الزيني بركات .**"(١)

يتبين لنا ان من العادات التي كانت سائدة في المجتمع المصري في عصر المماليك هو عدم خروج الناس ليلاً من منازلهم، وبالاخص النساء التي كان الزيني يتدخل في لباسم ومنعهم من ازياء معينة وعدم خروجهم ليلا من منازلهم حفاظاً عليهم ولكن يبدو أن قدوم الزيني امر عظيم استدعى كسر العادة المجتمعية القائمة وخروجهم إلى الطرقات ليلا.

" **الناس لا يقصدون إلا هو، عطل أبواب الأمراء والقضاة ، حتى أشيع أن الزيني ينوي الجمع بين القضاء والحسبة، ورد الزيني على هذا بركوبه بغلته وتوجهه إلى جامع الأزهر لصلاة الجمعة ، خطب في الناس نافيا كل ما بتردد عنه، قال إن الحسبة تقتضي منه وعيا ويقظة، فهل يتحمل عبء الجمع بينها وبين مهام أخرى، هلل الناس له، كبروا، حاولوا تقبيل عباءته، تتر فيهم الزيني وأبدى غضباً وغيظاً**" (٢).

من العادات المعروفة والتي كانت شائعة عند الحكام ان يركب المحتسب بغلته ويسير بين بالطرقات وكان هذا التصرف يلقى قبولاً واستحساناً عند الناس، فضلاً عن كثرة خطبه ولقائه بالناس وتجمعهم حوله والاستماع اليه.

" **في يوم الإثنين، في الصباح، حيث خرج الخلق يحتفلون بشم النسيم، يمارسون اللهو والفرجة رأيت سعيد الجهيني، وفي الحال تواريت عنه**"(٣).

من العادات الثابتة والراسخة في المجتمع المصري هو عيد شم النسيم الذي يحتفلون فيه بقدوم فصل الربيع حيث يخرج الناس إلى الحدائق والمتنزهات ويسمتعون بجمال الطبيعة .

" **الزيني يتحدث من فوق المنبر، ابن سيد الناس يتجر في الفول كما يهوى، الشفاه تتسابق في تقبيل زكريا، لمس طرف عباءته، الرجال أمام الدكاكين يهزون رءوسهم، يضيقون عيونهم، يا سلام هل رأت القاهرة رجلا مثله ، أنظروا إلى ورعه، إلى تقواه، لن**

---

(١) الزيني بركات: ١٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ١١٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٦.

يأت الزمان ببصاص كهذا، الزيني يخطب الناس، في صوته لين ومسكنة"[١].

من العادات التي كان يمارسها الناس تجاه السلطان او الحاكم وكل من يمتلك سلطة كثرة الدعاء له والهتاف بأسمه وتسابق الناس لتقبيل يده ولمس عباءته وتقبيلها إذ كان الناس يسعون في مواكبهم وتجمعاتهم ويكثرون من تمجيدهم أما خوفا منهم وتفادي لشرهم و طمعا في نيل رضاهم ولمجاراة مصالحهم او انهم مخدوعون بهم لا يعلمون نواياهم ومساعيهم الحقيقية.

" **أقبل السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري ، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة، وكان السلطان راكباً على فرس أشقر عال، بسرج ذهب وكنبوش وهو لابس عباءة بعلبكية بيضاء مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة ، وكان ذلك اليوم غاية في الأبهة والعظمة، فإنه كان حسن الهيئة، تملأ منه العيون ، مبجلا في المواكب** [٢]".

من عادات السلاطين والملوك المبالغة في تزين مواكبهم بالذهب والاحجار الكريمة وكثرة البهرج، فضلاً عن زي السلطان ولباسه المبالغ بها وتطريزها بالذهب وعمامته الكبيرة وكانوا يلجاون لهذه الزينة لإبهار الناس واثارة دهشتهم وكثرة الحديث المتداول بينهم عن موكب السلطان وطريقة مروره وبقاء هذا التأثير في نفوسهم.

" **يا أهالي مصر..**

نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر

انكشف المستور

ظهر المقبور

بانت فضيحة علي بن أبي الجود

الليلة قبيل المغرب

سيقرأ الفقهاء في الجوامع

وثيقة تلقون فيها ما تشاءون

لتروا، كيف امتص الظالم

---

(١) الزيني بركات: ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٩.

دماء المسلمين

فحق عليه عقاب مبين "[١].

من المعروف قديماً وفي عصر المماليك خصوصاً تنقل الأخبار إلى الناس عن طريق الجوامع إذ يمثل الجامع منبراً للأخبار وحلقة الوصل بين الناس والدولة ويتم بث الاوامر والقرارات عن طريقه ومن خلال الشيوخ وربما سعت الدولة من خلال استخدام الجوامع والشيوخ ان تنقل الاوامر المختلفة وايصالها للناس عن طريقهم لتخفيف هيجان الناس عليهم إذ يتمتع الشيوخ بمكانة حسنة عند الناس وكل ما يصدر عنهم يكون أخف وقعاً على نفوسهم مما لو صدر من الحاكم شخصيا.

" **ارى ونحن مقبلون على عصر كله محن، وفتن، ونظراً لتعدد الطوائف والأجناس في بر مصر، أن تعد بطائق صغيرة من الجلد، يحملها الصغير والكبير والبصير والضرير، يوضح في كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج، بالكشف أيضاً المهنة التي يزاولها الشخص، الجهة المقيم بها تختم هذه البطائق بخاتمين أحدهما من عند نائبي في منطقة الإقامة، والآخر من مقدم البصاصين في نفس المكان، ومن ضبط بدون بطاقة جلد، عوقب معاقبة شديدة، وعند وفاة الإنسان تقوم أسرته بتسليم بطاقته إلى مقدم البصاصين لترفع إلى الديوان فيشطب اسمه من الأحياء، وينقل إلى كشوف الأموات ولا يستثنى الحريم** " [٢].

يحاول الزيني بركات دائماً كسر القواعد المتعارف عليها وابتكار الطرق الجديدة غير المعروفة لدى سابقيه ممن تولوا منصب الحسبة إذ يسعى دائماً إلى كسر القواعد والقيود المجتمعية المتعارف عليها من قبل الناس حيث تمثل بطاقة الجلد والتي بمثابة الهوية الشخصية أمر جديد لم يعهده الناس سابقاً" **وعشنا وشفنا بدع الآن لا يقدر إنسان على الحركة من بيته إلى الجامع إلا بقطعة الجلد هذه . . والله عجيب»، قال قصير القامة ولم نسمع بهذا من قبل**"[٣]، إذ اثار هذا الأمر فتنة بين الناس واعترض البعض منهم وخصوصاً بعد فرض العقوبة الشديدة على كل من لا ينفذه، والراوي بذلك يمثل الواقع الذي نعيشه حالياً في سائر البلدان العربية من فرض العقوبة على كل شخص يخرج من دون هويته ومهما وبلغ

---

(١) الزيني بركات: ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ١٦١.

مدى اعتراض ورفض الناس لكنهم لا يستطيعون تغير شيء لان الزيني تمكن واستوطن من منصبه ولم يقدر أحد على مواجهته او مخالفة اوامره.

"**دخل رجل رفيع أسمر حول رأسه عامة صغيرة زرقاء نصراني من أهل الذمة**"(١).

من التسلط المجتمعي الذي كانت تمارسه الدولة فرض ألوان معينة على طوائف المجتمع المختلفة، إذ يتميز المجتمع المصري بتعدد طوائفه وهذا الامر الذي جعل الدولة تفرض على كل طائفة ارتداء ألوان معينة للنساء والرجال فكان نصيب النصارى اللون الازرق، وقد حرصت السلطة على ان يكون لأهل الذمة زيهم الخاص الذي يعرفون به وأمروهم ألا يتزينو بزي المسلمين هم ونساؤهم واولادهم(٢)، ففي عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون كان لبس العمائم للنصارى اللون الازرق واليهود اللون الاصفر(٣).

" **دفعت الناس حتى اقتربت من عربة مسطحة صغيرة العجلات يجرها بغلان فوقها رجل متوسط القامة يقف في غير ثبات مخلوق الحاجبين واللحية، كحلت عيناه كالنساء، تناثرت بقع حمراء على وجنيته ، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الألوان له زر طويل**"(٤).

كان من ضمن العادات المعروفة سابقاً عقوبة التشهير على الاشخاص الذين يرتكبون افعالاً خارجة عن اطار الدولة وسياستها وقوانينها فتقع عليهم هذه العقوبة وكان الهدف من التشهير فضح المجرم امام الملأ والحط من قدره وقيمته عند الناس والتشهير يكون بركوب المجرم على الحمار بالمقلوب وارتداءه فوق "رأسه طرطور طويل احمر"(٥)، وهي سلطة إيجابية الى حدٍ ما وذلك لفرض القانون ومعاقبة المجرمين، فضلاً عن فضحه أمام الناس فإنَها تكون بمثابة عقوبة شديدة لها وقع نفسي كبير على الجاني.

---

(١) الزيني بركات: ١٦٢.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: علي بن عبدالقادر تقي الدين المقريزي، تح: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧: ٣/ ٤٤.

(٣) ينظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ٢/ ٣٣٩.

(٤) الزيني بركات: ١٤٠.

(٥) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار: المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ: ١/ ٣٨٦.

الخاتمــة

❖ وضح البحث أهمية العادات والتقاليد ومدى سلطتها وهيمنتها على الأفراد فهي تمثل الموروث الحضاري للمجتمع وكيفية تلاعب السلطة بها وتطويعها بما يناسبها ومحاولة (الزيني بركات) السيطرة عليها وتسييرها كيفما يشاء.

❖ يظهر لنا البحث مدى تمسك الناس بالعادات والتقاليد وعدم تخليهم عن هذا الموروث فضلا عن الدفاع عنه والوقوف بوجه السلطة التي تحاول تطويع كل شيء بما يخدم مصالحها.

❖ أظهر البحث أهمية العادات والتقاليد في تحديد هوية المجتمع والفترة الزمنية التي مرت بها القاهرة خلال حكم المماليك.

❖ ويتبين لنا في الختام أن الكاتب كان متمكناً وبارعاً في تطويع لغته واساليبه في عرض الأحداث من تقديم وتأخير لتستوعب مشاعر الشخصيات وبرزت قدرته في اختيار الألفاظ وتحكمه بها فجاءت متماشية مع موضوعها.

ثبت المصادر

- تاريخ الاثنولوجيا من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية: روبرت لوي، ت: نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٢ .
- توظيف التراث في خطاب عمر الطالب القصصي: رسالة ماجستير: الهام عبدالوهاب عبدالقادر، اشراف الدكتورة فاطمة عيسى جاسم، جامعة الموصل، كلية التربية، ٢٠٠٨.
- رواية الزيني بركات: جمال الغيطاني، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤.
- السلطة في المجتمع: عبد العزيز عزت، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٠.
- السلوك لمعرفة دول الملوك: علي بن عبدالقادر تقي الدين المقريزي، تح: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- علم الاجتماع القانوني: حسن الساعاتي، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٠.
- علم الفولكلور (الأسس النظرية والمنهجية):محمد الجوهري ، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨١.
- القيم والعادات الاجتماعية: فوزية دياب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠ .
- معجم المصطلحات في اللغة والأدب: كامل المهندس ومجدي وهبة، مكتبة لبنان، لبنان، ط٢، ١٩٨٤.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار: المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.